

لقد وردت لفظة يتفكرون في القرآن الكريم في العديد من الآيات لتوجه إمعان النظر في هذا الكون أرضه وسماؤه، ماؤه وهواه، جباله وأشجاره وصحراؤه ونباته وزروعه وثماره. كل ذلك يحتاج منا التفكير ومن هنا كان العيش في ظلال الكون والحياة بهذه الروح والرؤية يزيد من الإيمان واعتبر الله أن هذا الصنف من الناس من أولي الأبواب كما جاء في نهاية سورة آل عمران والتي نترككم في تفسيرها مع ابن كثير.

(إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَابْتِغَاءِ لَافِ الْمَوَالِئِ وَالنَّارِ لَدَاتٍ لَأُولِي الْمَالِ بَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سَبَّحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مَن أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مَنَادِيًا يُنَادِي: لِّلْإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبِرَارِ رَبَّنَا وَأَتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ

(آل عمران: 190 – 194)

(إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(. معنى الآية أن الله تعالى يقول: (إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
(أي هذه في ارتفاعها واتساعها وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها، وما فيها من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثواب وبحار وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار وحيوان ومعادن، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص،) وابتغاء لاف الموالئ والنار

(أي تعاقبهما وتعارضهما الطول والمقصّر، فتارة يطول هذا ويقصّر هذا، ثم يعتدلان ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً، ويقصّر الذي كان طويلاً وكل ذلك تقدير العزيز العليم، ولهذا قال تعالى: (لَدَاتٍ لَأُولِي الْمَالِ بَابِ

(. أي العقول التامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم والبكم الذين لا يعقلون، الذين قال الله فيهم: (وَلَا تَقْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ

(. ثم وصف تعالى أولي الأبواب فقال: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

(. كما ثبت في الصحيحين عن عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ قال: (صَلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنبك

(. أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمايرهم وألسنتهم، (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(أي يفهمون ما فيها من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته. وقال المدارني: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة ولي فيه عبرة، وعن الحسن البصري أنه قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة، وقال: الحسن: الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: طوبى لمن كان قبله تذكرًا، وصمته تفكيرًا، ونظره عبرًا. وقال مغيث الأسود: زوروا القبور كل يوم تفكركم، وشاهدوا الموقف بقلوبكم، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامها وأطباقها، وكان يبكي عند ذلك حتى يرفع صريعاً من بين أصحابه. وقال ابن المبارك: مر رجل براهب عند مقبرة ومزيلة فناداه فقال: يا راهب إن عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيهما معتبر: كنز الرجال، وكنز الأموال. وعن ابن عمر: أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يائي الخبرة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ

وقال بعض الحكماء: من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة. وقال بشر الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه، وعن عيسى – عليه السلام – أنه قال: يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت، وكن في الدنيا ضعيفاً، واتخذ المساجد بيتاً، وعلم عينيك البكاء، وجسدك الصبر وقلبك الفكر، ولما تهتم برزق غد. وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – أنه بكى يوماً بين أصحابه فسئل عن ذلك، فقال: فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تذكرها مرارتها. ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر، إن فيها مواضع لم أذكر.

وقد قدم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال: (وَلَا يَتَذَكَّرُ فِي مَا مَنَعَهُ أَلَمَ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ

، ومدح عباده المؤمنين: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(، قائلين: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا
(أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً، بل بالحق لتجزي الذين أساءوا بما عملوا، وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ثم زهوه عن العبث وخلق

الباطل، فقالوا: (سَبَّحَانَكَ
(أي عن أن تخلق شيئاً باطلاً، (فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

(أي يا من خلق المخلوق بالحق والعدل، يا من هو منزّه عن النقائص والعيب والعيب، قنا من عذاب النار بحولك وقوتك، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، وتجيرنا به من عذابك الأليم، ثم قالوا: (رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ

(أي أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع، (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مَن أَنْصَارٍ

(أي يوم القيامة لا مجير لهم منك، ولا محيد لهم عما أُرِيتهم، (رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مَنَادِيًا يُنَادِي: لِّلْإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا

(أي داعياً يدعو إلى الإيمان، وهو الرسول، (أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا

(أي يقول آمنوا بربكم فآمنا أي فاستجبنا له واتبعناه أي بإيماننا واتباعنا نبيك، (رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

(أي استرها، (وَكُفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا

(أي أرحمنا بنبينا وبينك، (وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبِرَارِ

(أي ألقنا بالصالحين، (رَبَّنَا وَأَتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ

(أي أوفنا بوعدهم، (وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(أي لا تخلف الميعاد، (إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ

(أي لابد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك وهو القيام يوم القيامة بين يديك. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر

من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتعجده فقال البخاري – رحمه الله –، عن ابن عباس – رضي الله عنهما قال: بت عند خالتي

ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ تَأُولِي الْمَالَ بَابُ) الآيات، ثم قام فتوضأ واستن، ثم صلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس المصباح. وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة بعدما مضى ليل فنظر إلى السماء، وتلا هذه الآية: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ تَأُولِي

الْمَالَ بَابُ) إلى آخر المسورة، ثم قال: (اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، وعن بين يدي نوراً، وعن خلفي نوراً، وعن فوقي نوراً، وعن تحتي نوراً وأعظم لي نوراً يوم القيامة

(¹)

(. وعن عطاء قال: انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة - رضي الله عنها -، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب، فقالت يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا، قال: قول المشاعر (زر غيباً تزد حباً

(فقال ابن عمر: ذرينا أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ؟! فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس

جلده جلدي ثم قال: (ذريني أتعبد لربي عز وجل

(، قال، فقلت: والله إنني لأحب قريبك، وإنني أحب أن تعبد ربك، فقام إلى المقربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى

بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة المصباح، قالت، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة:)

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ تَأُولِي الْمَالَ بَابُ

(، ثم قال: (ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها

(²)

).

الهوامش:

(¹)

(رواه ابن مردويه عن ابن عباس.

(²)

(رواه ابن مردويه وعبد بن حميد.